السِّحر في الشِّعر الشَّعبي الجزائري

Maginc in Algerian Popular Poetry

نوال مساعد*

المدرسة العليا للأساتذة مسعود زغار العلمة – سطيف (الجزائر)، nawalmessad@gmail.com

تاريخ الوصول 2022.12.30 تاريخ القبول 2022.12.30 تاريخ النشر 2022.12.31

ملخص:

يُعَدُّ السِّحْرُ من الأمور المتعارف عليها منذ خَلْقِ الإنسان، والسِّحر حسب المعاجم العربية القديمة من حيث المعنى اللُّغوي يدلُّ على الخداع وما يلحق ذلك من استمالة القلب والتأثير عليه إيجابًا أو سلبًا، وكأنَّ الأمر يخصُّ القلب وما يحيط به من مشاعر وأحاسيس وعواطف. وقد يكون للعقل دخل في ذلك، وربَّما تظهر العلاقة بين العقل والقلب في كون كل منهما يقع تحت تأثير السِّحر لابُدَّ له بعد ذلك من التأثير في الثَّاني بطريقة عكسيَّة. وقد وَرَدَ مصطلح السِّحر في الشِّعر الشَّعبي الجزائري للدّلالة على عدَّة مفاهيم؛ وفي هذه الرِّحلة القصيرة سنجول في دروب الشِّعر الشَّعبي الجزائري، لِنَرَى كيف استخدم هؤلاء الشُّعراء لفظة "السِّحر" وبأيَّة معانٍ!؟ وإلى أيِّ مدى يظهر تأثّرهم – من خلال استخدامهم لهذه اللَّفظة – بالقرآن الكريم والحديث النَّبوي الشَّريف!؟ وما نصيب سحر جمال النِّساء من هذا الشِّعر!؟

الكلمات المفتاحية: الشعر الشّعبي, الشّعر الشّعبي الجزائري, المعتقدات الشّعبية, السّحر, شعراء الملحون.

Abstract:

Magic has been a known matter since the creation of Man. According to the classical Arab dictionaries, magic as a linguistic meaning is the fact of deceiving and creating some influence on the heart of people either positively or negatively. As it is mainly focused on the influence on Man's heart and his feelings and emotions. The mind may be involved in that, and perhaps the relationship between the mind and the heart appears when each of them fall under the influence of magic, which must then influence the second in an opposite way.The term magic usually denotes several conceptsin Algerian popular poetry. We try to conduct a survey on the Algerian popular poetry to see how dothe poets use the term of magic and its different meanings. And to what extend have they been influenced by the Quran and the sayings of our Prophet Muhammed (Peace Be Upon Him)? And do they devote a part of their poetry to talk about the magic ofwomen's beauty.

Keywords: Popular Poetry, Algerian Popular Poetry, Popular Beliefs,The Magic, Melodic Poets,

* المؤلف المرسل

1- تعريف السّحر:

أ- لغة:

تُعرّف القواميس والمعاجم العربية القديمة السّحر على أنه: «كل ما كان من الشيطان فيه معونة. والسحر: الأخذة التي تأخذ العين. والسحر: البيان في الفطنة. والسحر: فعل السحر»[1]، وقد اتفق أصحابها على أن السحر هو الخديعة؛ فجاء في "مختار الصحاح" قوله عن السحر أنه: «الأخذة وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر..(وسحره) أيضا خدعه».[2]

وأضاف "الفيروزآبادي" في معجمه حول معاني لفظة السّحر قوله: «والسحر: كل ما لطف مأخذه ودق.. و"إن من البيان لسحرا" معناه –والله أعلم–أنه: يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف قلوب السامعين إليه. ويذمه فيصدق فيه حتى يصرف قلوبهم أيضا عنه»[3].

وهو نفس المعنى الذي أشار إليه صاحب "المصباح المنير"؛ حيث توسع في شرح لفظة السحر، وأعطاها معان أخرى إضافة إلى المعاني السابقة، وأسهب في شرح اللفظ وتحليله وتفصيله قائلا: «والسحر..إخراج الباطل في صورة الحق ويقال هو الخديعة وسحره بكلامه استماله برقته وحسن تركيبه..ولفظ السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع».[4]

السحر إذًا؛ حسب المعاجم العربية القديمة من حيث المعنى اللغوي يدل على الخداع وما يلحق ذلك من استمالة القلب والتأثير عليه إيجابا أو سلبا، وكأن الأمر يخص القلب وما يحيط به من مشاعر وأحاسيس وعواطف، وقد يكون للعقل دخل في ذلك، وربما تظهر العلاقة بين العقل والقلب في كون كل منهما يقع تحت تأثير السحر لا بد له بعد ذلك من التأثير في الثاني بطريقة عكسية.

ب- اصطلاحا:

عرّفه بعضهم على أنه: «عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه، أو يعمل شيئا يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة فمنه ما يقتل، وما يمرض، وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما يبغض أحدهما إلى الآخر أو يحبّب بين اثنين».[5]

2- السّحر في الشّعر الشّعبي الجزائري:

في هذه الرحلة القصيرة، سنجول عبر دروب الشّعر الشّعبي في الجزائر، لنرى كيف استخدم شعراء هذه المنطقة لفظة "السحر" وبأية معان؟ وإلى أي مدى يظهر تأثرهم–من خلال استخدامهم لهذه اللفظة–بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؟

الشاعر الشعبي "أحمد وليد بن القُبّي" في قصيدته "زيارة إلى فرنسا" يحاول أن ينقل إلينا حالته النفسية الصعبة أثناء مغادرته أرض الوطن (الجزائر) مرتحلا إلى فرنسا، وكأن هذه الرحلة/الزيارة كانت مقدّرة من لدن المولى عز وجل، ولن يستطيع الشاعر أن يلغيها أو يستغني عنها، حيث يقول في افتتاح قصيدته:

يَاخُوتِي نحْكِيلْكمْ بِيَّا مَاصَارْ لِي مَكْتُوبَة كُلْ وَاحدْ تَجْرَالُوا
فالْمَكْتُوبَة مَا يْفِيدُوشْ النُّضَّارْ لاَ طَالبْ لاَ طْبِيبْ يَحْكَمْ بشْغَالُو
مَا تَنْفَعْ فِيهَا عْزِيمَة لاَ عَقَّارْ كُلْ آخرْ خَيَّرْ بْلاَصَة تَحْلاَلُو
مَقْيُومَة منْ كُلْ جِهَة قَاعْ اخْيَارْ وُالْمُوتُورْ اجْدِيدْ زَايخْ بشْغَالُو

أشار الشاعر في الأبيات السّابقة إلى السّحر من خلال مفردات الحقل الدلالي لكلمة "سحر" فذكر: (طالب، عزيمة، عقار)؛ حيث تشير هذه الألفاظ إلى فعل السّحر، ولو لم يقصد الشاعر ذلك صراحة، ورغم ذلك فإنه يدرك –بفعل ثقافته الدّينية–بأن أعمال السّحر هذه لن تنفع صاحبها مع وجود القضاء والقدر (المكتوبة)، وذلك حسب ما ورد في قول المولى عزّ وجلّ: {...**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ**...}[6]؛ أي «من شاء الله سلّطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضرّ أحد إلا بإذن الله».[7]

لقد أدرك الشاعر بفطرته ومن خلال ثقافته الدينية البسيطة –فهو لم يحظ بتعليم لا في الكتاب ولا في المدرسة–أن قضاء الله وقدره وما كتبه للإنسان في حياته لن تغيره التمائم والعزائم والعقاقير والطلاسم السّحرية التي يمارسها البشر بالاستعانة بالجن والشّياطين؛ لأن السّحر في جوهره هو: «ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان»[8].

والسّحر عند الشاعر هو رمز للباطل والشر والأذى، حيث يدل على تزييف الحقائق وتغيير صورها، وهو يدل –أيضا–على «إخراج الباطل في صورة الحق، وهو في أصل اللغة الصرف. وسمي سحرا لأنه يصرف الشيء عن جهته».[9]

وليس بعيدا عن الدلالات التي جاء بها رمز السحر عند الشاعر "أحمد وليد بن القبي" نجد شاعرا آخر هو "إسماعيل مداد" الذي أراد –من خلال قصيدته "ياليتني"–أن يُذّكر قلبه بمآل الحضارات السابقة، وأن يقنعه بضرورة الانتباه أكثر لدينه. يقول الشاعر مخاطبا قلبه:

احْرزْ دِينكْ يَا قَلْبُي دِيرْ مْزِيَّة مَا تَلْعَبْشِ فالدّنْيَا لعْبكْ مَلْعُوبْ
قَبْلكْ لَعْبُو بالْعقَاربْ وُالْحَيَّة قَبْلكْ كَانْ سْحُورْهمْ لجْبَالْ تْذُوبْ

يذكرنا الشاعر في البيت الثاني –السابق–بأن هناك من الحضارات الماضية من استخدموا العقارب والأفاعي في عملية السحر والتمويه وخداع البصر، وكأني به يتقاطع في دلالاته مع قصة سيدنا موسى –عليه السلام–وسحرة فرعون، ذلك أن موسى –عليه السلام–حين ألقى عصاه، «صارت حية عظيمة ذات قوائم..وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعا، وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي، فجعلت تلقفه واحدا واحدا في أسرع ما يكون من الحركة...».[10]

وقد شاع السحر عند بني إسرائيل في عهد سيدنا موسى –عليه السلام–حيث أكد المولى عز وجل وجود السحرة في ذلك الزمان, ووضح ما يقومون به من أعمال وطقوس تثير الرهبة والهلع في النفوس وتفتن الأعين والقلوب. قال الله سبحانه وتعالى:{**قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**}[11]، أما قول الشاعر: (قبلك كان سحورهم لجبال تذوب)؛ ففيه إشارة إلى هاروت وماروت ببابل وسحرهما العظيم. قال تعالى: :{**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ**}.[12]

3– سحر جمال المرأة في الشّعر الشّعبي الجزائري:

الجمال عند شعراء القصيدة الشّعبية في الجزائر متعدّد، ولكن مصدره الأول دائما هو الأنثى، والأنثى وحدها هي دائما من يصنع الجمال، ويخلق الإثارة، ويجلب الفتنة، ويصنع الدهشة، ويسعد القلب، ويرضي العين. إنها السّحر في حدّ ذاته.

وقد يطول الحديث عن السّحر الذي تمارسه النساء على الرجال، لأنهن– بفطرتهن التي فطرهن الله عليها–ساحرات؛ بحركاتهن وسكناتهن، بأقوالهن وأفعالهن، بنظراتهن وضحكاتهن وهمساتهن، بعيونهن وشفاههن وأجسادهن، بغموضهن وبراءتهن، بلباسهن وزينتهن.. وبكل ما أوتينه من جمال ودلال، وما جبلن عليه من حب وعطف وحنان.

يصف الشاعر "إسماعيل مداد" حالته بعد عودة رسوله إليه فارغ اليدين؛ حيث دار بينهما الحوار التالي:

جَانِي يلْهثْ قَالِّي وشْ هَاذْ الْقولْ سَامحْنِي يهْدِيكْ رَبِّي مَوْلاَيَا
حَوَّستْ عْلِيهَا الدّنْيَا عَرْض وطولْ سَقْسيتْ عْلِيهَا احْبَابِي وُاعْدَايَا
جيتْ مْوَلِّي كِي الْمَهْزُومْ الْمَذْلُولْ مَا شَكَّيْتشْ للوكَرْ جَاتْ اهْنَايَا
قتْلُو رَاكْ صْحِيحْ وْكْلاَمكْ مَعْقُولْ مَا تتْعَذَّرْ مَا تْعَاوذْ لحْكَايَة
اسْحرْنِي جَمَالْهَا رَانِي مَشْغُولْ مَانْي لاَهِي بِيكْ لاَهِي بْلاَيَا
رَوَّحْ يَا مَرْسُولْ مَا دَامكْ مَعْدُولْ أَمْر الْحبّ اصْعِيبْ نَارُو قَدَّايَا
وَادُو وَاعرْ بالْمَوْجَة دِيمَا مَحْمُولْ شفْنَا فيهْ ارْجَالْ وَلاَّوْا اشْفَايَا

لم يوضح الشاعر "إسماعيل مداد" تفاصيل هذا الجمال الساحر؛ ولكنه أشار إلى ذلك بشكل مجمل، فصارت لفظة السّحر بالنسبة إليه دالة على الجمال والفتنة والإثارة وهي رمز–أيضا–للحب والعشق وتميّز الأنثى ونقاء العنصر وصفاء السريرة. لقد اقترن جمال الأنثى وسحرها بالحب والعشق، إذ لا يختلف اثنان بأن الجمال والحب مرتبطان ارتباطا وثيقا، ولا نكاد نعثر على أحدهما إلا وعثرنا على الآخر، وارتباط هذين العنصرين بعضهما

ببعض يولّد عنصرا ثالثا يجعل هذه العلاقة جذابة ومثيرة. إنه السّحر: سحر الأشكال البشرية الجميلة، وسحر العواطف الإنسانية الفياضة.

وفي مثل هذه الحالة لا يسع الشاعر إلا أن يستعين بساحر (طالب) يفك له غموض حالته، ولكن هيهات، هيهات، وقد استفحل الداء، وعظم البلاء، والسبب هو نظرة قاتلة من فتاة سمراء.

وهذا الشاعر "البشير قذيفة" يختصر لنا تجربته في قصيدته "الساعة" قائلا في نبرة تفيض بالأسى والحزن والألم:

بَعْدَانْ قُلتْ خْلاَصْ منْ هَاذْ الْخَطْرَة مَا ندْخُلْشِي بَحْرهمْ شَطُّو نخْطِيهْ
ارْمَانِي مَكْتُوبْ يَا هَاذْ الْحضْرَة رَانِي فِي زَيَّارْ وَحْدِي حَاصلْ فيهْ
ارْمَاتْنِي بسْهَامْهَا طُفْلَة سَمْرَة تْوَدَّرْ عَقْلِي حِينْ رَبِّي زَادْ عْليهْ
لاَ طَالبْ لاَ طْبِيبْ يَنْفَعْ ذ الْمَرَّة وُالْجُرْح اِذَا طَالْ وشْ اتْدَاوِي فيهْ
عَنِّي مِيشْ بْعيدْ وَانَا فِي حَيْرَة اتْخَبَّلْ غَزْلِي وُمَا صُبْت انْسَدِّيهْ
رَاهَا تَسْهَرْ كُلْ لَيْلَة فِي دَشْرَة وُسمْحتْ فالِّي حَبْهَا مَابَاتْ اتْجِيهْ
مَا اشْتَاقتشْ لوَكْرهَا تَعْمَلْ دَوْرَة وُمَا قَالتْ كِيفَاهْ مسْكِينْانْخَلِّيهْ
بَعْد انْ وَالْفَنَاكْ يَاكَحلْ الشَّفْرَة كِيفْ اتْخَلِّينَا وُالْغَيْر اتْزَهّيـــهْ
حَبَّيْنَاكْ خْلاَصْ وُالْوجْه اتْعَرَّى وُاظْهَرْ بَاينْ عيْبنَا واشْ نُسْتُرْ فيهْ
حَيَاةْ بْلاَ بيكْ تسَمَّى صَـــحْرَا اِذَا رُحْتِ ذ الْعمُرْ وشْ نَعْمَلْ بيهْ

هذه تجربة الشاعر "البشير قذيفة" في حب فتاته السمراء، أوردناها في بعض الأبيات التي انتقيناها من قصيدته "الساعة"، حيث يظهر فيها وجعه وألمه، ويبدو الشاعر من خلالها مشتاقا إليها ومعاتبا إياها على هجرانه، ولكنها لا تأبه بعذابه، لذلك يتوسل الشاعر إلى المولى عز وجل أن يشفي جرحه وأن ينسيه إياها. يقول الشاعر:

اشْفِينِي يَاخَالْقِي جُرْحِي يَبْرَا يَا عَالمْ بهْمُومْ قَلْبِي وُالِّي فيهْ
نَنْسَاهَا وُنْعُودْ كِي أَوَّلْ مَرَّة هَمْ الْوحْدَة وُالسّهَرْ مَا طُقتْ عْليهْ

أشار الشاعر "البشير قذيفة" في أبياته السابقة إلى السحر، ولكن من خلال المسؤول عن القيام به (الطالب)، عندما قال:

لاَ طَالبْ لاَ طبيبْ يَنْفَعْ ذ الْمَرَّة وُالْجُرْح اِذَا طَالْ وشْ اتْدَاوِي فيهْ

إنه يعتقد –ولكنه لا يجزم تماما–بأن "الطالب" يستطيع أن يداوي جرحه، أوأن يخلصه من جراح الحب والعشق التي أصيب بها بسبب محبوبته السمراء، وكأن هذا الساحر بيده الحل والخلاص. لقد صار "الطالب" في الذهنية الشعبية –وخاصة في سنوات مضت–رمزا للخلاص والانفراج ونيل المطالب بسرعة وسهولة، ويحمل دلالة

تتمثل في طلب المساعدة عند الوصول إلى نقطة اللاّرجوع واللاّعودة. إنها محاولة لتغيير الأوضاع إلى الأحسن وذلك بالاستعانة بمن يدعي كشف المجهول ومعرفة الغيبيات.

ولكن هذا الاعتقاد بالنسبة لهؤلاء الشعراء تشوبه الرّيبة والشك في صحة هذا الادعاء، فهم وإن صرحوا بحقيقة السحر والسحرة، إلا أنهم في نهاية الخطاب –ضمن قصائدهم–يؤكدون عدم جدية ذلك وأن الأمر كله لا يعدو كونه خزعبلات وشعوذات وطقوس لا فائدة ترجى من ورائها، وإنما السحر الحقيقي–كما هو في تعريفه اللغوي–هو سحر الجمال وسحر البيان، وسحر العواطف والمشاعر والأحاسيس.

ويظهر ذلك جليا عند الشاعر "عبد القادر العطوي" الذييفتتح الشاعر قصيدته بقوله:

وَاشْ ادَّانِي رُحْت للْبَابْ نْطَبْطَبْ وَاشْ ادَّاهَا جَايَة تَفْتَحْ فالْبَابْ

صَوْت امْرَخَّمْ حَاسُّو منِّي قَرَّبْ زَعْزَعْنِي وُالْقَلْب سَلُّو منْ لَجْدَابْ

بَـانتْ لَيَّا وَصْفهَا لَيْكمْ يُصْعُبْ شعْلتْ لِي مشْعَالْ فِي جَوْفِي لَهَّابْ

رسْلتْ بَسْمَة شْوَاتْ قَلْبِي فِي مَلْهَبْ آمَجْفَاهَا قَاسْيَة خَلاَّتُو طَابْ

أليس هذا الوصف هو السحر ذاته؛ سحر البيان، وسحر الجمال، سحران يمتزجان، ويذوبان في براعة الشاعر، «..والسحر الكلامي غرابته ولطافته المؤثرة في القلوب المحولة إياها من حال إلى حال كالسحر»[13]، وكصوت هذه الفتاة المحبوبة الرخيم الذي أخذ بلبّ الشاعر وزعزع كيانه. لقد عشقها قبل أن يراها، وعشق صوتها قبل أن يرى صورتها، وصدق رسول الله ρ حينما قال: «إن من البيان لسحرا» أي «أن بعض البيان سحر لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه فيستميل القلوب كما تستمال بالسحر, وقال بعضهم لما كان في البيان من إبداع التركيب وغرابة التأليف ما يجذب السامع ويخرجه إلى حد يكاد يشغله عن غيره شبه بالسحر الحقيقي وقيل هو السحر الحلال».[14]

سحر البيان والتركيب هو ما تمثل في رد الفتاة على طلب الشاعر حينما خطبها لنفسه بطريقة مباشرة بقوله:

قُلْت لْهَا يَا زينة النَّابْ مْذَهَّبْ متْوَحَّشْ بَابَاكْ نَاوِيَّاهْ اصْحَابْ

مَارَايكْ لُو كَانْ نَرْجَعْلُو نُخْطبْ نتْنَاسبْ وُنْعُودْ نَاوِيَّاهْ قْرَابْ

فما كان منها إلا أن تظهر الأدب واللطف والبشاشة في موقف كهذا:

قَالتْ لِي يَا ضيفْنَا بيكْ نْرَحَّبْ وُاعْذرْنِي ذا الْيومْ بَابَا عَنَّا غَابْ

وُنسْتَسْمَحْ لكَانْ جيتْ عْلَى الْمَشْرَبْ كَاينْ يَاسرْ كِي انْتَ رَجْعُو غُوَّابْ

لقد رحبت به، واعتذرت عن غياب أبيها، ثم استسمحته، وأخبرته برفضها له، ولكنه رفض بطريقة غير مباشرة، وإنما شبهته بغيره من الخطاب الذين توافدوا عليها يطلبون ودها، وفي البيت الثاني كناية عن الخطبة والرفض؛ حيث تحمل عبارة (جيت على المشرب) كناية عن الخطبة والطمع في القرب، وتحمل عبارة (رجعوا

غواب) كناية عن خيبة الأمل وعدم الحصول على المراد والعودة دون تحقيق المطلوب، وباختصار شديد فهي كناية عن رفض المحبوبة.

صوت الفتاة المحبوبة سحر الشاعر أما صورتها فقد جعلته يستنجد –كعادة الشعراء الذين سبق ذكرهم– بالحكيم (الطبيب) والطالب الذي استنجد هو الآخر بساحر من وجدة بالمغرب الأقصى[15]، ولكن لا هذا ولا ذاك، لا الطبيب استطاع أن يكتشف الداء الذي ألم بالشاعر، ولا هذين الساحرين استطاعا أن يحلا لغز هذا التغير المفاجئ الذي طرأ على الشاعر, الذي يصف حالته بعدما تركته الفتاة وانسحبت إلى داخل البيت حيث الأمان والدفء والسعادة والحنان والراحة. يقول:

حَالْ الْحَـايلْ بينَّا وُاللّيْل ضْرَبْ هِي رَاحتْ سَالْمَة وَانَا مُصَابْ
تَرْكتْنِي وُمْشَاتْ خَلاَّتْ الْمَضْرَبْ نَعْت مْقَيْدَدْ سَايْقِينُو عَاطشْ غَابْ
بَايتْ طُولْ اللّيلْ سَاهرْ نتْعَذَّبْ سلْبتْنِي مَا شفْت فِيهَا مَا يتْعَابْ
مَا فَادْ الْحَكِيمْ مَا يَعْرَفْ منْ طُبْ مَا شَخَّصْ مَرْضِي وُجَا عَنُّو يَصْعَابْ
حَتّى الطَّالبْ حَـارْ فِيَّ وُتْعَجَّبْ آمرْ لِي عَزَّامْ منْ وَجْدَة يَزْرَابْ
حَلّْ كْتَابُو مَا لْقَى لاَ مَا يكْتبْ وُتْخَبَّلُّو مَا قْرَا وُذْهَبْ لحْسَابْ

لقد كان الشاعر يعرف منذ البداية بأن الأمر ليس بيد أحد من البشر، فهم خلق الله الضعفاء، وليس باستطاعتهم تشخيص مرضه أو توفير الدواء المناسب لحالته، والسحرة ماهم إلا فتنة في الأرض، وذلك بدليل اعترافه الموالي:

لاَ هَذَا لاَذَاكْ خَلُّونِي نرْتبْ طُبِّي فِيدْ الزَّايْخَة مَالُو طَبَّابْ

ربما تساءل المتلقي، أو قد يتساءل عن الظروف التي جعلت الشاعر يطلب المساعدة من الساحر، والإجابة موجودة في ثنايا البيت السابق، حيث يعلل هذا الأخير أسباب ضعفه وتعبه وعذابه وسهره بحبه وتعلقه بالفتاة التي جاء يطلب أباها سليما فعاد سقيما، جاء لحاجة فعاد وحاجته إلى الفتاة أهم من أي حاجة أخرى. إنه سحر الأنثى؛ سحر جمالها المادي وجمالها المعنوي اللذان يجسدهما الشاعر في اللوحة الفنية التالية؛ حيث أبدعت ريشته في رسم أجمل امرأة على سطح الأرض. إنها فتاته التي أحبها فجأة من أول نظرة، وهي رمز لكل أنثى خلقها المولى عز وجل للمتعة واللذة والاستقرار والراحة والسعادة.

يستعرض الشاعر هذا الجمال الساحر في الأبيات الموالية:

أَسُبْحَانْ الِّي خْلقْ العزيزْ الرَّبّْ مَكَّنْ فِيَّ حُبِّهَا ضَرْبة نَشَّابْ
طَلْقتْ سَالفْ عالصّدَرْ طَاحْ مْلَوْلَبْ دَامسْ لاَمعْ عَابْ عَنْ رِيشة لغْرَابْ
وُالْقَشْوَة ضَيْ الْقمَرْ فِيهَا يغْربْ أَرْبَعْطَاعشْ فالشّهَرْ جَمْعتْ لَصْحَابْ
فوقْ العينْ هْلاَلْ مَلْفُوطْ مْنَشَّبْ آخرْ لَيْلَة فالشّهَرْ وُقْضَى لحْسَابْ

المُقْلَة حُوتَة وُالْبحَرْ بِيهَا يَلْعَبْ مَحْبُوسَة مَا بينْ لَجْفَانْ وُلَهْدَابْ
عَيْنينْ عْلِيهَا رْبَاعِي وَسْط جْعَبْ متْوَجَّدْ للْحَرْب مشْعَالُو شَلْهَابْ
مْنَيْشَنْ مَعْدُولْ نَحْوِي مصَوَّبْ نْحسْ بصَهْدَة قَادْيتْلِي فِي لَجْنَابْ
خَدّْ مْزَعْرَرْ كِي النُّـوَارْ مْرَتَّبْ خَوْخ مْلَقَّمْ بَانْ فِي سَجْرَاتُو طَابْ
شفَّة حَمْرَا كَانْهِي دَمْ مْخَضَّبْ وَلاَّ بنْ نعْمَانْ تَزْهَى بيهْ اَعْلاَبْ
سنْ يِلَعَّجْ ثَلجْ عنْ قمَّة رَسَّبْ ضَحْكتْ لَيَّا كَاشْفَة عَنْ ذَاكْ النَّابْ
وُالرَّقْبَة بَلاَرْ فيهْ الرِّيقْ اعْقَبْ ولا ثْرَيَّة طَالَّة منْ فوقْ سْحَابْ
خَاوْ الْمَحْزَمْ كِي الْمُهْرَة تتْجَلَّبْ مَا شَدّتْ مشْوَارْ مَا شَافتْ زُكَّابْ
زَكْيِيّـــَة فالشَّاوْ لسّعْ تدَّرَّبْ عَرْبِيَّة منْ صِيلْهَا هَاكذْ هَيَّابْ
مَرْشُوقة لَقْدَامْ تمْشِي تسَّرْسَبْ تتْمَايلْ فِي مَشْيهَا وُالْخَطْو حْسَابْ

أليس هذا هو الإبداع بذاته!؟ إنها صورة تشكيلية من فنان عبقري، انتقل فيها من شَعر رأس محبوبته إلى أسفل قدميها مرورا بكل تفاصيل جسدها الجميل. لقد صورها تصويرا ماديا يشبه إلى حد كبير تمثال دمية منحوتا من المرمر. هذا هو السحر الذي مارسته الفتاة المحبوبة على الشاعر، بالإضافة إلى أنّها:

بنْت الصَّحْرَا صِيلْهَا خَيْر النَّسَبْ تتْمَنَّى لو كَانْ تدِّيهَا كَسَّابْ

أليست هذه الصفات من أجمل الصفات التي يمكن أن تتحلى بها أي امرأة جميلة على سطح هذه الأرض!؟ بلى إنها كذلك، فلابد لأي رجل أن تسحره علامات الجمال هذه، ولابد لأي ذكر أن يقع في غرام أنثى تتميز بمميزات كهذه. إنه سحر الجمال والملامح العربية الأصيلة.

الخاتمة:

لقد استخدم الشعراء لفظة السحر مرتبطة بلفظة الجمال، وهذا دليل واضح على ما قلناه سابقا من أن السحر في توظيف شعراء القصيدة الشعبية في الجزائر هو رمز للجمال والحسن، ولا يرد أحد المصطلحين في قصيدة شعبية –تقريبا–إلا ورد المصطلح الآخر برفقته. هذا يدل على أن هؤلاء الشعراء قد هذّبوا الكلمة ولم يستخدموها على أنها تحمل معنى السحر الحقيقي –كما ورد في القرآن الكريم–الذي حرّم المولى عزّ وجل تعلّمه وممارسته، وإنما حاولوا توظيفها توظيفا رمزيا جماليا يوحي بثقافتهم الدينية العالية ومستواهم الأخلاقي الراقي.

من هنا؛ يتضح لنا جليا أن هذا الاستخدام الرمزي للسحر خصوصا هو توظيف واضح المعالم بعيد عن كل ما يشوبه من سوء ظن أو خروج عما أمر به الدين الإسلامي وما نهى عنه، ولا يعني هذا الاستخدام الرمزي أن الشعر الشعبي في الجزائر «يجري ويلهث وراء توظيف الرموز واستلهام واستدعاء دلالاتها دون وعي بحقيقة تلك الرموز وخلفياتها المرجعية»[16] بل على العكس من ذلك فهو«ملتزم بضوابط وقواعد تتعلق أولا برؤيته وتصوره

الخاص وترتبط ثانيا بنظريته التي لا تغفل عن دور السيّاق في العملية الإبداعية ومن ثم يدقق في السياقات التي ينبغي أن يتنزّل فيها الرمز حتى لا ينفلت عن دلالته المقصودة».[17]

قائمة المصادر والمراجع:

1. الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2003.
2. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1986.
3. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تعليق: أبوالوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، مراجعة: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008. باب [سحر]
4. الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الفكر، ج2، ط3.
5. أحمد بن محمد بن علي الفيّومي المقرئ: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987.
6. وحيد عبد السلام بالي: الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، ط10، 1998.
7. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، السعودية، ج1، ط2، 1999.
8. المعلم بطرس البساني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987.
9. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر، ط05، 1997.
10. رابح بن خوية: شعرية المعنى الصوفي في القصيدة–شعر محمد الغزالي أنموذجا–حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر، ع5، نوفمبر 2015.

1- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2003، ص: 220.

2- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1986، ص: 122.

3- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تعليق: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، مراجعة: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008، ص: 751؛ باب [سحر]

وينظر: الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الفكر، ج2، ط3، ص: 528.

4- أحمد بن محمد بن علي الفيّومي المقرئ: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987، ص: 102.

5- التعريف لابن قدامة المقدسي؛ عن: وحيد عبد السلام بالي: الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، ط10، 1998، ص: 14.

6- سورة البقرة، الآية (102).

7- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، السعودية، ج1، ط2، 1999، ص: 364.

8- المعلم بطرس البساني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987، ص: 400.

9- نفسه، ص: 400.

10- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر، ط05، 1997، ص: 411.

11- سورة الأعراف، الآية (116).

[12]- سورة البقرة، الآية (102).

[13]- المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، ص: 400.

[14]- أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ: المصباح المنير، ص: 102.

[15]- يشيع في الأوساط الشعبية أن المغرب الأقصى هو أكثر الدول استقطابا للسحرة الذين يمارسون السحر بكل طرقه وأنواعه وأشكاله.

[16]- رابح بن خوية: شعرية المعنى الصوفي في القصيدة–شعر محمد الغزالي أنموذجا–حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر، ع5، نوفمبر 2015، ص: 13.

[17]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.